المحاضرة الثامنة: الحكم العثماني في طرابس 1551-1911م

ألحق العثمانيون طرابلس بتاج الباب العالي سنة 1551م، وذلك بعد صراع طويل مع الاسبان وفرسان القديس يوحنا، فبعد أن احتل الأسبان طرابلس الغرب سنة 1510م ونكّلوا بأهلها واخذ الكثير منهم أسرى إلى إسبانيا، أين بقي الأسبان فيها إلى غاية تسليمها لفرسان القديس يوحنا سنة 1530م، وذلك بعد طردهم من جزيرة رودس سنة 1523م.

ورغم المحاولات العديدة للعثمانيين من أجل استعادة المدينة إلاّ أنّهم لم يتمكنوا من ذلك إلا في سنة 1551م، بواسطة جيش ضخم كان يقوده بيالي باشا والريس درغوث.

وما إن انتصب الحكم العثماني في البلد حتى بدأ عصر جديد من الحكم هو نظام البايلرباي.

1- عهد البكلربكي 1551-1587م.

كان أول الولاة على طرابلس الغرب بعد فتحها من قبل العثمانيين وهو مراد آغا 1551-1555م، وكان مراد بغا قد كلّف سابقا بمهمة طرد فرسان القديس يوحنا من تاجوراء أين اتخذت مركزا لمهاجمة مدينة طرابلس، "وقد أولى مراد آغا أهمية بالغة لمدينة طرابلس أين جعل منها عاصمة للإيالة، وذلك بنقل مركزه من تاجوراء إليها، وجعل كنيسة المدينة مسجدا كما حصنها وأنشأ القلاع ورمم الموجودة سابقا".[1]

قام فرسان القديس يوحنا لإعادة احتلال المدينة سنة 1552م، لكنها باءت بالفشل الذريع بعد حصار دام ثلاثة أشهر كاملة.[2] وشهد عهد مراد آغا سطوة رجال البحرية؛ خاصة مع رياس بحر متمييزين أمثال درغث باشا فخلال الفترة الممتدة بين سنتي 1556-1565 أثار البحارة

---

[1] محمود علي عامر ومحمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث -المغرب الأقصى-، مرجع سابق، ص169.
[2] أحمد بك، مرجع سابق، ص42.

الطرابلسيون الرعب في البحر الأبيض المتوسط، ما ألزم الدول الأوربية على دفع ضرائب لإرساء معالم السلم مع السلطة الطرابلسية، وفي المقابل تمكن حكام طرابلس الغرب من إقامات علاقات تجارية مع الدويلات الإيذالية ككورسيكا وجنوة والبندقية ومالطا.[3]

3- حكم الأسرة القرمنلية 1711-1835م.

ترجع أصول الأسرة القرمنلية إلى منطقة قرمان بالأناضول، وقد أسس الحكم القرامنلي في طرابلس الغرب أحمد القرامنلي الذي قاد ثورة ضد نظام حكم الدايات سنة 1711م.

فبعد أن شاع الفساد في البلاد، وآيست الساكنة المحلية من حكم الدايات خاصة في أواخر عهدهم الذي شهد انحلالا وصراعا على السلطة، "ففي ستة أشهر من سنة 1710م تعاقب على حكم البلاد أربعة دايات هم: إسماعيل داي ورجب داي ومحمد داي ومحمود داي"[4]، وهكذا ظهر أحمد القرامنلي الذي كان أحد قادة الانكشارية، فقاد انقلابا على آخر الدايات المدعو محمود داي وذلك بدعم من الجيش، و"اعترفت الانكشارية به دايا عليهم، وراسل أحمد القرامنلي الداي محمود قائلا: "إنني على وشك أن أنزل بك ما أنزلته بي"، وما إن وصلت الرسالة لمحمود حتى شنق نفسه خوفا من المصر الي ينتظره إذا سقط في يد احمد".[5]

توفي مراد آغا سنة 1555م وخلفه على السلطة

---

[3] رجاء محمد عوض وأمال أمحمد الجبو القذافي، النشاط الإقتصادي للموانيء الليبية خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911م، المجلة الجامعة، م.04، ع.22، ديسمبر 2020، ص456.

[4] أبو ***عبد*** الله محمد ***بن خليل*** ابن غلبون الطرابلسي، تحميل كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تح. الطاهر أحمد الزاوي، دار المدار الاسلامي، بنغازي، 2002، ص245.

[5] شارل فيرو، الحوليات اليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي، تر. محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة بن غازي، ليبية، 1994، ص265.

أرسل الباب العالي خليل باشا لتقلد منصب الحاكم على طرابلس أين لم يعترف السلطان بولاية أحمد القرامنلي، وقد رافقه أسطول إلى طرابلس لإلزام الداي أحمد على التنازل، ويذكر القنصل الفرنسي لابولار أن "الأسطول رسى على سواحل طرابلس في 6 أوت سنة 1711م، غير ان القائد إبراهيم الملاّ لم يستطع إقناع الديوان لتعيين خليل باشا، وطرد الجميع من المدينة، ويبدو أن الأموال التي دفعها الطرابلسيون رشوة للقائد ومرافقيه قد اتى أكله حيث عبر أن عزل الداي أحمد القرامنلي هي من سلطة الصدر الأعظم لا السلطان.[6]

وكان لهذا الانتصار المعنوي دافعا ليتخذ القرمنلي أحد اجرء القرارات في تاريخ طرابلس الغرب، أين "أقام حفلة باذخة جمع فيها جمع فيها جميع العساكر، وذل في قصره الواقع قرب المدينة فخنق ثلاثمائة منهم، في حين فرّ الباقون إلى الإستانة واعلموا السلطانة بالحادثة، ولاسكات الباب العالي رد أحمد باشا بأرسال هدايا نفيسة إلى سلطات الولاية".[7]

وهكذا انفرد أحمد القرمانلي بالحكم حيث استقل عن الدولة العثمانية سنة 1720م وجعل لنفسه حكومة من أهل البلد[8]، فعمل على تحصين الميناء طرابلس أين جعله في منأى عن أي هجوم أوربي على طرابلس الغرب، كما قام بإعادة إصلاع القلاع المهترئة وبناء حصون جديدة مثل حصن أبو ليلة، وحصن الراب، وحصن المندريك.[9]

كما نمت في عهده التجارة، وانتعش الاقتصاد الطرابلسي، فيذكر ابن غلبون: "أن تجار البلد قد اخبروه أنهم عندما دخلوا مدينة بلنسية، سألهم أهلها من أي بلد من المغرب العربي أنتم،

---

[6] شارل فيرو، مرجع سابق، ص266-277.

[7] شارل فيرو، المرجع نفسه، ص272.

[8] حسين مسعود أبو مدينة، ميناء طرابلس ليبيا، دراسة جغرافية النقل، أطروحة دكتوراه، قسم البحوث والدراسات الجغرافية، جامعة الدول العربية، 2005، ص97.

[9] المرجع نفسه، ص98.

فردوا: نحن من طرابلس الغرب، فسألوهم: أيبنون منازل بالذهب والفضّة؟".[10] وتطورت في عهده ايضا البحرية الطرابلسية حيث جعلت عائدات الغنائم السوق الطرابلسية تنتعش انتعاشا كبيرا، فسعت الدول إما لكسب طرفه أو معاداته، ورغم بعض الحملات الاوربية على المدينة إلاّ أن الفشل كان مآل الكلّ، "ونتيجة لهاته المتاعب قامت جنوة بعقد الصلح مع أحمد القرامنلي شرط ان تدفع له أربعة آلاف زكيني كل سنة وسلّمت له سفينة بها ستة وخمسون مدفعا فضلا عن كميات من البارود".[11]

لكن رغم الاستقرار الذي شهدته طرابس الغرب؛ إلاّ أن الثورات لم تهدأ، فثار حسين الكولوغلي سنة 1713م، ثم قام علي الصنهاجي سنة 1715م، وأعلن الخروج عن حكم أحمد القرمنلي، وما كاد الأخير يقضي على هاته الثورة حتى قاد حملة جديدة ضد فزان سنة 1718م.[12]

انتحر أحمد القرامنلي بتاريخ الـ 03 نوفمبر سنة 1745م، وذلك بالنظر إلى كبر سنة وفقدان بصره، وقد خلفه على الحكم محمد باشا القرامنلي وهو ابن أحمد باشا من ام عربية، "وفي عهده نشبت القلائل والثورات، فثار ضده أهل درنة سنة 1753م، وثارت قبائل غريان سنة 1754م، ولم تتوقف مشاكل محمد باشا عند هذا الحد فقد أرسل الفرنسيون حملة ضد طرابلس سنة 1748م، تلتها حملة إنجليزية سنة 1751م، وألزمه بتوقيع السلم واحترام السفن الانجليزية المبحرة في المتوسط".[13]

توفي محمد باشا سنة 1754م وخلفه على الحكم علي القرامنلي حيث "شهد عهد سطوة الانكشارية وعودتها إلى الحكم، فأصبحوا يحكمون البلد باسمه، واصيبت البلد بقحط كبير ادت إلى هجرة الكثير من الناس إلى تونس ومصر، فاستنجد السكان بالاستانة لإنقاذهم من حكم علي

---

[10] ابن غلبون، مصدر سابق، ص248.
[11] رود لفوميكاكي، طرابلس الغرب، تحت حكم أسرة القرمنلي، تر. فوزي طه، دار الفرجاني، ليبيا، ص16-17.
[12] إيتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى نهاية سنة 1911م، الدار العربية للكتاب، 1991، 330-332.
[13] رود لوفوميكاكي، مرجع سابق، ص87-88.

فأرسلت علي برغل على رأس أسطول في 29 جويلية 1793م، حيث استولى على المدينة ونصب نفسه واليا عليها".[14]

وقد أرهق علي هذا الناس بالضرائب، حتى أنّه "بعد أن قام بتقتيل أبناء مشايخ الدواخل، راح يستولي على أثاث القلعة حتى لم يترك فيها مسمارا واحدا"[15]، وغن حكما كهذا كان لا بد أن يؤول إلى الزوال، "فقد قاد يوسف القرمنلي الذي كان مستقرا في تونس حملة بمساعدة التونسيين على طرابلس، أين تمكن من هزيمة علي برغل الذي فر في 28 فيفري سنة 1795م.[16]

تمكن يوسف باشا القرامنلي من غزاحة شقيقه عن الحكم في جويلية سنة 1795م، وتحصل أيضا على فرمان من السلطان يفيد بتوليته على طرابلس الغرب، وكان جكم يوسف باشا أحد أطول العهود خلال العهد العثماني، إذ شهد حكمه استقرارا سياسيا بسبب دهائه وحكمته، فتذكر كاتبة إنجليزية في يومياتها: "إنّ مسلكه في مواجهة الأتراك الغاضبين قد ارغم الجميع على الاعتراف له بالبروز والتفوق على كافة أفراد الأسرة والإقرار له بالحكمة والدهاء رغم ما تميذز به قلبه من قسوة".[17]

وفي الحقيقة فإن شخصية يوسف باشا وطول فترة حكمه قد ساعدت كثيرا في استقرار الأوضاع، فازدهرت الصناعة من خلال صناعة الصابون والخمور، وراجت التجارة أين برز التجار الطرابلسيون في إفريقيا وحتى أوربا، وأعاد يوسف باشا تنظيم البحرية وولى قيادتها إنجليزيا اسمه بيتر ليل كان قد اعتنق الاسلام واتخذ لنفسه اسم مراد رئيس، وبهذا اصبحت طرابلس الغرب مركزا للغنائم والسلع.[18]

---

[14] الطاهر احمد الزاوي، مرجع سابق، ص226.
[15] شارل فيرو مرجع، سابق، ص363.
[16] إيتوري روسي، مرجع سابق، ص369-370.
[17] المرجع نفسه، ص373.
[18] رود لوفوميكاكي، مرجع سابق، ص135، 139.

لكن أواخر عهد يوسف باشا شهد انحدارا نحو الجبروت والتكبر على الساكنة المحلية، خاصة وأنّ يوسف باشا كان قد بلغ من العمر عتيا، ولم يعد في استطاعته الحكم، "فتخلى عنه الكثير من أنصاره، فتخلى عن الحكم بتاريخ الـ 12 من أوت سنة 1832م، أين خلفه على الحكم ابنه علي".[19]

كان علي باشا آخر حكام العهد القرامنلي، حيث أنه تولى الحكم "والثورات قائمة في البلد، وقد اصر الثوار على عدم الاعتراف بسلطته رغم التعيين التي أتاه من السلطان سنة 1833م، وفي سنة 1835م رسى أسطول عثماني على سواحل طرابلس مكون من 22 سفينة، وأعلن تولية نجيب باشا واليا على طرابلس الغرب".[20]

انتهى حكم الأسرة القرمانلية بعد الضعف الذي أصابها في أواخر عهدها، ليتم الانتقال إلى نظام حكم جديد هو ما يسميه المؤرخون "العهد العثماني الثاني" بداية من سنة 1835م.

4- العهد العثماني الثاني 1835-1911م

في 14 ماي من سنة 1835م وصل أسطول عثماني سواحل طرابلس، ونصّب نجيب باشا واليا على طرابلس خلفا لعلي باشا، الذي أعلم أعيان البلد بأنه إنما جاء لطرابلس كي يهيء الأحوال لاستقبال محمد رئيف الذي عينة السلطان حاكما على طرابلس.[21]

لقد شهد العهد العثماني الثاني حالة من اللاإستقرار في الحكم؛ علما أن عدد الولاة الذين تداولوا السلطة في طرابلس الغرب خلال هذا العهد بلغ عددهم ثلاثون واليا، أين أثر كثرة العزل لعدم استقرار الوضع العام، حيث قضى معظمهم الوقت في إخماد الثورة.

---

[19] الطاهر احمد الزاوي، مرجع سابق، ص232..

[20] المرجع نفسه، ص234-235.

[21] أنتوني جوزيف كا كيا، ليبيا في العهد العثماني الثاني 1835-1911م، دار حياء الكتب العربية، 1946م، ص38.

تمكن نجيب باشا فعلا من وضع حد للفوضى التي كانت منتشرة في المدينة، غير أن ولاء الساكنة الطرابلسية وقادة القبائل لم يكونوا قد استقروا على الخضوع بشكل تام لنفوذ العثمانيين، حيث استمر عبد الجليل سيف النصر مستقلا عن الحكم مدة أربعة سنوات، في حين أن آغا مسراتة ورغم توجيهه رسالة احترام لنجيب باشا إلاّانه استمر مستقلا بمنطقته.[22]

استمر نجيب باشا في سك العملة المحلية باسم السلطان وضرب النقود المحلية النحاسية سنة 1835م، "ولم يدم حكمه طويلا حيث عزل في سبتمبر من نفس السنة وخلفه الوالي محمد رئيف"[23]

كان أول ما قام به الباشا رئيف هو "ترحيل أفلراد الأسرة القرامنلية إلى إسطمبول ومن هناك إلى بلاد الأناظول"، ثم تفرغ لأهل تاجوراء الثائرين فأرسل إليهم محمد باشا قائد الانكشارية سنة 1836م، والذي تمكن من وضع حد لهذا التمرد"[24].

واستقرت الأوضاع نوعا ما في عهد الطاهر باشا الذي انتهت عهدته سنة 1838م، لكن قصر فترة توليه السلطة لم تساعده في تعزيز ركائز حكمه، وبمجرد انتهاء حكمه حتى ثارت القبائل على خلفه حسن باشا الجشمة لي، éالذي أقبل على الملذات ونسي الحكم".[25]

وقد استمرت تجارة الرقيق قائمة في طرابلس الغرب، وذلك إلى غاية سنة 1855م، أين احتج البريطانيون عن الوضع، الأمر الذي حدا بالحكام إلى تخفيفها ولو رسميا، فأدى ذلك إلى تأثر وانهيار الاقتصاد الليبي القائم على ريع هاته العائدات.[26]

---

[22] شارل فيرو، مرجع سابق، ص451.
[23] إيتوري روسي، مرجع سابق، ص444-445.
[24] أحمد بك، مرجع سابق، ص341-343.
[25] المرجع نفسه، 344.
[26] إيتوري روسي، مرجع سابق، ص452.

ورغم أن الايالة شهدت استقرارا في عهد علي باشا عشقر الذي تولي الحكم في أوت سنة 1838م، أين تمكن من إخماد الثورات والقيام بالتجارة والصناعة؛ إلاّ أن هذا التغيير دائما ما كان يخضع للولاة أنفسهم وليس للمنظومة، فطرابلس الغرب تكون قوية إذا حكمها والٍ قويّ وهشة حين يتولاها والٍ ضعيف، ما يؤكد أن هؤلاء الولاة لم يكونوا في الغالب يخضعون لرقيب أو قانون تنفيذي يلزمهم حدودهم، وحتى الانكشارية طالما استأنست بولي ضعيف لا يطلق سلطته عليهم.

وهذا ما يمكن أن نلاحظه حين تولى خلفه راغب باشا سنة 1847م، حيث ثارت ضده القبائل، حتى أن أهل غريان قتلوا أحمد أفندي متصرف لواء الجبل، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ففي عهد راسم باشا شهدت البلاد "حاول سراج الدين رفقة مجموعة من شباب طرابلس أمثال أحمد النائب وشيخ البلاد.. إلخ فتصدى لهم وقام بنفيهم"[27]وهذا منعا لأي تغيير خارج السلطة، خاصة مع الانحدار الذي مس جميع العالم العربي في أواخر العهد العثماني، الذي بدأ تظهر نتائجه بسقوط الجزائر في يد الفرنسيين سنة 1830م.

وهكذا فإن سلطة الوالي العثماني اقتصرت على الساحل في حين ان المدن الداخلية اتخذت لنفسها حكاما مختلفين، فانقسمت البلاد إلى قبائل وأعراش مستقلة لكل منها قائده ونظامه الخاص، ولعلّ مرد هذا الاستقلال هو التمييز الذي كان يتبعه الولاة في تسيير البلد أين جعلوا الإدارة مركزية.

وأمام ضعف الولاة "تمكن القناصل من لعب دور بارز في إدارة الحكم مستغلين امتيازاتهم، كما أنّ اهتمام الحكام في أواخر العهد العثماني الثاني منع التحرشات الأوربية؛ وبخاصة التغلغل الأنجلومصري شرقا والفرنسي غربا".[28]

---

[27] أحمد صدقي الدجاني ، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي ، المطبعة الفنية الحديثة للنشر والتوزيع ،القاهرة ،1971، ص

[28] نبيل لزعر، أوضاع ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي، المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية، ع06، ديسمبر 2018م، ص 23.

قامت جمعية اتحاد الترقي بخلع السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1908م، فخضعت البلاد لحكم الاتحاديين، ورغم عملية الإصلاح التي سعى نحوها العثمانيون؛ خاصة بعد سقوط تونس سنة 1882م، إلاّ أن الوضع العام والحصار الذي فرضه سقوط دولتي الجزائر وتونس، "بالاضافة إلى سحب جزء كبير من الجيش إلى اليمن لإخماد الثورة سنة 1911م"[29] قد نسف جميع محاولات الاصلاح.

لقد كان الايطاليون قد درسوا طرابلس الغرب جيّدا وذلك من خلال البعثات العلمية السرية، كما ان "الصهاينة قد فكّروا في تأسيس وطن قومي في ليبيا، فأرسلوا إلى بعثات منها بعثة ناحوم سلوش وبعثة جريجوري، وأراد الفرنسيون والانجليز أخذ نصيبهم بليبيا، حيث وقع الفرنسيون مع إنجلترا معاهدة أصبحت بموجبها المناطق الممتدة حتى جبال تيبيستي خاضعة للنفوذ الفرنسي سنة 1899م.[30]

أعلن الايطاليون الحرب على الدولة العثماني بتاريخ الـ 29 سبتمبر سنة 1911م، مستغلين الوضع في ليبيا خاصة مع وجود "جالية أوربية قوامها ألفي أوربي أغلبهم إيطاليون"[31]، وفي شهر أكتوبر من نفس السنة احتل الايطاليون طرابلس الغرب،"فانسحبت الحامية التركية إلى الصحراء والتف حولهم العرب، وما هي إلاّ أسابيع حتى حاولوا استعادة المدينة لكن دون جدوى.[32]

---

[29] نبيل لزعر، أساليب إيطاليا الممهدة لاحتلال ليبيا، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، م.5، ع.12، ديسمبر 2017، ص59-60.

[30] إيتوري روسي، مرجع سابق، ص529.

[31] Bandini, Franco, Gli italiani in Africa. Storia delle guerre coloniali 1882-1943 [The Italians in Africa. History of the Colonial Wars 1882-1943] (in Italian), Milan: Longanesi & C, 1971, 267.

[32] ينظر: Vandervort, Bruce, Verso la quarta sponda la guerra italiana per la Libia (1911-1912) [Towards the Fourth Shore the Italian War for Libya (1911-1912)] (in Italian). Rome: Italian Army General Staff, 2012.